● من تراث صحيفة دار العلوم ●

ذو الـــرُّمَّـــــة

بقلم الأستاذ الجليل الشيخ أحمد الإسكندرى
عضو المكتب الفنى بوزارة المعارف ، وعضو المجمع اللغوى الملكى

« ليس فى القطر المصرى ، ولا العالم العربى من يجهل " شيخ دار العلوم " . فليس فى هؤلاء جميعا من لم يتتلمذ على الأستاذ أو على كتبه . وحسب الأستاذ فخراً أن يكون جميع من خرجتهم « دار العلوم » فى مدى ربع قرن ممن تثقفوا على يديه ثقافة عربية صحيحة ، أما كتبه ومقالاته وبحوثه فحدث عن الجاحظ وابن العميد ، ولك أن تزيد . وأما أثره فى المجمع اللغوى الملكى فحسبنا فى التعريف به مجلة المجمع التى تشهد صفحاتها بجهد الفتى ، وحكمة الشيوخ . وستنشر « صحيفة دار العلوم » فى الأعداد المقبلة بعض بحوث الأستاذ التى لم تنشر من قبل مما هو مخطوط محفوظ فى مكتبة شيخنا العالم الدءوب » .

ذو الرمة : هو أبو الحارث ، غَيْلان ، ذو الرُّمَّة بن عُقْبة العدوى الملكانى . وقومه ملكان بن عدى بن عبد مناة من قبائل مضر ، كانت تنزل جنوبى نجد . فولد ذو الرمة فى باديتهم حوالى سنة ٧٧ هـ . ونشأ بينهم نشأة أبناء الأعراب ، ولم يرد فى أخباره ذكر لأبيه ، فلعله مات وهو صغير وربته أمه وعمه وإخوة له ، فخرج أعرابيا جَلْدا على الرحلة والأسفار منذ شب ، فصيح اللسان ، عذب الحديث ، حاضر الذهن ، سريع الجواب ، فإنه لقى بعض أسفاره مع بعض أبناء عمومته وإخوته إذ اجتازوا بحيّ من أحياء بنى منقر من تميم ، وقد أجهدهم العطش ، فأرسلوه يستسقى لهم من بيت عاصم بن طلبة بن قيس بن عاصم المنقرى ، خرجت له بالماء ابنته ميّة ، وكانت بارعة فى

● السنة الأولى ، العدد الرابع ، المحرم ١٣٥٤ هـ ، إبريل ١٩٣٥ م .

الجمال ، فبهره حسنها ، وكان على كتفه رُمَّة (أى قطعة بالية) فقالت له : اشرب ياذا الرمة ، لقد كلفك أهلك السفر على ما أرى من صغرك وحداثة سنك . فلقب من يومئذ بذى الرمة . فرجع وهو مفتون بها ، وأنشد فيها أول شعر قاله ، ثم مكث يهيم بها ويشبب بها فى شعره عشرين سنة ، يلم فيها بديار قومها ومرابعهم التى ينزلونها ، عله يتغفل رجال الحى ويتحين خروجهم فى أمر من الأمور فيقف قليلا يكلمها ثم ينصرف ، وربما جلس على باب بيتها واجتمع عليه جاراتها فسمعن شعره فى نزاهة وتصوّن ؛ وإذا أحس قدوم الرجال ركب راحلته النجيبة صَيْدَحَ حتى عرفوا آثاره وآثارها ، وخافهم على نفسه ، وصار يستعير ناقة غيره ويزورها مسلما منشدا .

واحتال مرة أن يراها فتضيَفَّ زوجها ظانا أنه لا يعرفه ، فعرفه وأنزله فى العراء خارج البيت وبعث له بالقِرى ، فجاش صدره بشعر هتف فيه باسمها ، فأكرهها زوجها على أن تسبه من وراء الخباء ، فركب راحلته من وقته وانصرف مغضبا ، وعزم على أن يعدل عن حبها وألا يذكرها فى شعره ، فبينا هو فى بعض أسفاره مارّ بفَلْج (وهو منزل على طريق الحاج من البصرة إلى الحجاز) عطف على أهل بيت من بنى البَكّاء ابن عامر ليخرزوا له سقاء له خُرق ، فخرجت له امرأة جميلة ، فسألها أن تخرز له سقاءه ، فقالت : والله ما أحسنُ ذلك ، وإنى لخرقاء (والخرقاء عندهم هى التى لا تعمل بيدها شيئا لكرامتها على قومها) فسماها من وقتئذ خرقاء ، وشبب بها فى بضعة قصائد ، وهتف بها فى شعره بضع سنوات على غير محبة مكايدة لمى ، ولم يطل بعدها عمره .

ولم يكن حب ذى الرمة لمىّ ليبلغ به حد الوله والتدله ويقعد به عن الرزق والتكسب بالشعر ، فكثيرا ما كان يفد البصرة والكوفة ويقيم كل منهما مدة يمدح ولاة بنى أمية وأشراف العرب ؛ وإذا قصرت به النفقة تطفل وحضر ولائم الأعراس بلا دعوة .

وأكثر مدائحه كانت فى بلال بن أبى بُرْدة بن أبى موسى الأشعرى مدة ولايته على البصرة ..

وأدرك جريرا والفرزدق ، وهو شاب وهما شيخان ، فكانا يكبرانه ويعترفان له بتقدمه فى بعض أبواب الشعر ، واتهمه جرير بمالأة الفرزدق عليه ، وكان ذو الرمة يهاجى رَجّازا يسمى هشاما ، فأمد جرير هشاما على ذى الرمة بأبيات أفحمت ذا الرمة ، وعرف أنها لجرير فذهب إليه وتبرأ من ممالأة الفرزدق عليه ، فقبل اعتذاره وأعانه على هشام .

وكان ذو الرمة يلم بالقراءة والكتابة ويكتم ذلك . روى بعضهم أنه كان يكتب له شيئا فقال له : ارفع هذا الحرف ؛ فقال له : أتكتب ؟ فأشار بيده على فيه أن اكتم علىّ ، وقال : إنه عندنا عيب . أى لأنَفَةِ البداة من الصناعات ، والكتابةُ منها .

واعتل ذو الرمة بالبادية وطالت علته ، واحتاج فرأى فى نفسه خفة ، فخرج ينتجع بنى مروان ، فانتفضت علته فى الطريق ، فمات وهو ينشد :

يا مخرج الروح من جسمى إذا احتضرت
وفـــارج الكرب زحـــزحنى عن النار

ودفن برأس كثيب من كثبان حُزْوَى من رمال الدهناء ، وكان يذكره فى شعره سنة ١١٧ هـ فى خلافة هشام .

وكان ذو الرمة حلو العينين ، حسن النغمة ، طيب الحديث ، ديّنا عفيفا ، قليل الفحش فى هجائه ، حسن الصلاة ، شديد الخشوع فيها ، متسننا فى قوله وعمله ، ينشد الشعر فإذا فرغ قال : واللّه لأكْسَعَنَّكَ [1] بشئ ليس فى حسابك : سبحان اللّه والحمد للّه ولا إله إلا اللّه واللّه أكبر .

شعره

كان ذو الرمة وإخوته شعراء ، ولكنه اشتهر دونهم لحبه ميّة ؛ وأخبارُه معها وأخبار العشاق من أعجب الأحاديث للشبان والشواب ، فحفظوا شعره وغنى به القيان والمغنون ، وتناقله الرواة ، وأعجب علماء اللغة غريبه ففضلوه على كثير من شعراء

(١) أى لأضربنك باستغفار يمحوك ، وكسعه وسكعه بمعنى .

زمانه ، حتى كادوا يفضلونه على جرير وأمثاله من الفحول . ورأى أبى عمرو بن العلاء أن قد ختم به الشعر الفصيح ، وأنه آخر من ذهب مذاهب العرب القدماء فى شعره .

وكان ذو الرمة فى صغره راوية للراعى النُّمَيْرى ، وهو شاعر فحل هاجى جريرا فأسقطه جرير فى بائيته المشهورة التى يقول له فيها :

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعبا بلغت ولا كلابا

ثم فارق ذو الرمة أستاذه الراعى .

ولو لم يُحْتَضَر ذو الرمة وهو فى سن الأربعين ، وعُمِّر عُمْرَ الفرزدق أو جرير ، لكان له فى الشعر شأن غير ما نراه عليه اليوم . ومع أنه مات صغيرا ترك ديوانا من الشعر لا يقل عن ديوان كل منهما .

ورأى الشعراء والأدباء من أهل عصره وصدر الدولة العباسية فى شعره أن منه الجيد الذى لا يدرك شأوَه فيه جرير ولا الفرزدق ، ومنه الردئ الساقط ، وهو كثير بحيث لم يبلغ به مبلغ غاية الفحول فجاء بعدهم .

أغراض شعره وفنونه

تعرض ذو الرمة فى شعره لجملة فنون من الشعر أهمها النسيب ، ووصف الفيافى والرمال ، ونعت الدمن والأطلال والبكاء عليها ، وآثار الإبل والوحش والطير فيها ، والمدح ، والهجاء .

فأما النسيب والتشبيب فهو أنفس بضاعته وأروجها عند الناس وأسيرها شيوعا .

وقد سلك به مسلك القدماء فى الجاهلية . فلم يتهالك فيه تهالك جميل وقيس بن ذَريح ، ولم يتصنعه تصنع كُثَيِّر ، ولم يتأنث فيه تأنث الأحوص ، ولم يخرج به مخرج القصص وحكاية أحاديث النساء ومجانهن والتعرض لهن فى الطريق ومشاعر الحج كما يفعل عمر بن أبى ربيعة ، بل أشبه فيه جريرا والفرزدق والأخطل ؛ غير أن هؤلاء لم ينسِبوا عن عشق صحيح ووجد مبرح ، وإنما كان غزلهم خياليا قُصد به

محاكاة شعراء الجاهلية فى التمهيد به للمديح وغيره ، وإذا صدق أحدهم فغاية صدقه أن يصف زوجته بما يوصف به العفيفات من ربات الحجال - ونسيب ذى الرمة وليد عشق حقيقى ، كان له فيه قصائد مستقلة به لا يخالطها فن آخر ، وفيه تظهر حقيقة لوعته ، ومرارة شكواه ، وحلاوة عتابه ويلوح فى خلاله مخايل العفاف والتصوّن وصدق الوفاء لحبيبته ميّة ، وفيه يقول الأصمعى : « ما أعلم أحدا من العشاق الحضريين وغيرهم شكا حبا أحسن من شكوى ذى الرمة مع عفة وعقل رصين » .

ومن قوله فى ميّة وهو مما يتغنى به :

أما أنتَ عن ذكراك ميةَ مُقْصِرُ ؟ ... ولا أنت ناسى العهد منها فتذكرُ
تهيم بها ما تستفيق ، ودونها ... حجاب وأبواب وستر مُسَتَّرُ

وقوله فيها من قصيدة :

هى البرء والأسقام ، والبر ، والمنى ... وموت الهوى فى القلب منى المُبرِّح
وكان الهوى بالنأى يُمْحى وينمحى ... وحبُّكِ عندى يَسْتَجِدُّ ويَرْبَحُ
إذا غيَّر النأى المحبينَ لم أجد ... رَسِيسَ الهوى من حب مية يبرح

وأما وصفه فلم يذهب به بعيدا عن فن النسيب ، فكان يصف الفيافى فى رحلته إلى ديار الأحبة أو إلى الممدوحين ، ويصف الدمن والأطلال وأبعار الإبل الباقية بها ، وأثافى القدور المخلفة فيها ، ويطيل عليها البكاء والحسرة ، وأفرط فى ذلك أيما إفراط ، وأحاط فيه بمعانى المتقدمين ، وأضاف إليها ما لم يخطر على بالهم حتى استنفد فيه جهد فكره ، وأطفأ به شعلة ذكائه ، وعذله الناس وخاصة أخاه مسعودا ، وحتى عيَّره به شعراء زمانه كجرير والفرزدق وجعلوه سببًا فى إخماله وتقصيره عن بلوغ الغاية فى المدح والهجاء وغيرهما من فنون الشعر ، وحتى ضرب به المثل فى العكوف على الربوع الخربة ودمنها وبكاء النازحين عنها من أهلها .

فقال أبو تمام فى قصيدته التى يهنئ فيها المعتصم بفتح عمّورية ويصفها بعد تخريب عسكره لها :

ما ربْعُ مَيَّةَ معمورا يُطيفُ به ... غَيْلاَنُ أبهى رُبًى من رَبْعِهَآ الخرَبِ

ومن وصفه الديار قوله - وهو مما يتغنى به - :

وقفت على ربع لميـة ناقتى ... فما زلت أبكى عنده وأخاطبُهْ
وأسقيه حتى كان مما أبثه ... تكلمنى أحجاره وملاعبه

وقوله - وهو مما يتغنى به أيضًا - :

ألا يا اسلمى يا دار مىّ على البلى ... ولا زال منهلا بجرعائك القطرُ
ولو لم تكونى غير شام بقفرة ... يَجُرُّ بها الأذيالَ صَيْفية كُدْرُ

وقوله - وهو مما يتغنى به كذلك - :

أمَنْزِلَتَى مىّ سلام عليكما ... هل الأزمن اللاتى مضين رواجعُ ؟
وهل يرجع التسليم أو يكشف العمى ... ثلاث الأثافى والديار البلاقع ؟
ومَوْشيَّةً سُحْمُ الصَّيَاصِى كأنها ... مُجَلَّلة حُوٌّ عليها البراقع (١)

وأما مدحه فلم يكن بالغا حد الجودة ، وقد أسفَّ فيه أحيانا وجفا جفاء الأعراب ، مدح مرة بلال بن أبى بردة ، وهو أعز ممدوحيه عليه ، فقال من قصيدة :

رأيت الناس ينتجعون غيثا ... فقلت لصيدحَ انتجعى بلالا

(وصيدح هى ناقته ويذكرها كثيرا فى شعره) فلما سمع بلال هذا البيت قال : أو لم تنتجعنى غير صيدح ؟ يا غلام ، أعطه حَبْلَ قَتّ لصيدح . (والقَتّ ما نسميه بعاميّتنا : الدريس) أى أعطه حملا منه ، فخجل ذو الرمة .

---

(١) سحم : سود . الصياصى : القرون ، وأصل الصياصى : المعاقل والحصون ، وأطلقت على قرون البقر لأنها تحمى نفسها بها . حو : دهم .

على أن قصيدته البائية التى مدح بها هشام بن عبد الملك ومطلعها :

* ما بال عينك منها الماء ينسكب *

تعد من غرر الشعر ، وتمنى جرير لو تنسب إليه .

وأما هجاؤه فلم يكن فيه موجعا ولا مفحشا ، لأنه لم يكن يحسن التهكم بالمهجو ، ولا يكنى عن معايبه بالكنايات المضحكة للناس عليه ، كما كان يصنع جرير بالبعيث والراعى والفرزدق ، ولذلك لم يصل به شعره إلى غاية الأخطل والفرزدق وجرير ، لأن المفاضلة بين شعراء هذا العصر كانت فى ميادين المدح والهجاء ، وهما الروح السائد المتفشى فى شعر هؤلاء ، وذو الرمة لم يكن من المحسنين فيهما .

وكأنه كان يحس من نفسه القصور فى الهجاء ، فترضّى جريرا بتنصله من تهمة ميله إلى الفرزدق ، وقبل منه أن يمده على خصمه هشام المَرَئِىّ - أحد شعراء بنى امرئ القيس من تميم - بهذه الأبيات الثلاثة المشهورة ، وضمنها ذو الرمة قصيدته الرائية التى هجا بها هشاما فقال :

يَعُدُّ الناسبون إلى تميم ... بيوتَ المجد أربعة كبارا

يَعُدون الرِّباب وآل سعد ... وعمرا ثم حنظلة الخيارا

ويسقط بينها المَرَئِىُّ لغوا ... كما أُلغَيْت فى الدية الحُوارا (١)

وسمع الفرزدق هذه القصيدة من ذى الرمة فعرف أن هذه الأبيات ليست له وإنما هى لجرير ، وعرفها المرئى ، ومع علم كثير من الناس أنها ليست لذى الرمة اشتهر أنه غلب هشاما فى الهجاء ، وصادف أن مات ذو الرمة عقب إرفاد جرير إياه ، فلم يُمْحَ أثر غلبته على هشام ، لأن موت ذى الرمة منعه من مناقضته قصيدته هذه .

(١) لقد كان هذا البيت سيئ الحظ فى يد « الأشمونى » و « الصبان » فقد حرفه الأول وهو يستشهد به فى باب النسب ورواه هكذا : =

ألفاظه ومعانيه

عرفنا من حياة ذى الرمة أنه نشأ وعاش عمره بالبادية ، وأنه ابتلى من صغره بالعشق فأحب حبا صحيحا عفيفا خالط نفسه وأخذ بشغاف قلبه . فتألف مزاج شعره من جفاء البادية ورقة العاشقين ؛ فهو إذا وصف الفيافى ، وكثبان الرمال والوحش والنعام والإبل والظعائن ، وبكى الرسوم البوالى والعصور الخوالى ، رجع إلى طبيعة البُداة ومألوف الأعراب الجفاة ، فأعرب فى لفظه بالمعروف للمبتدين ، المنكور للمتحضرين ، وحاكى فى عبارته وأسلوبه فحول الجاهليين ، حتى ليصعب على غير حافظ لشعره أن يميز شعره فى هذه الأغراض من شعرهم ، فروى الرواة أن شعره كان يعجب أعراب البادية ، ويملأ صدور المتعصبة من علماء اللغة للجاهلية ، كأبى عمرو بن العلاء ، الذى خَتَم به فصحاء الشعراء .

وهو إذا هتف بمية . أو وقف على ربعها فحن وبكى ، وتوجع واشتكى رجع إلى طبيعة العشاق ، ومذلة أهل الجوى ، فرق لفظه ، وصرح أسلوبه وأعجب عشاق البوادى ، وظرفاء الحواضر ، وخف على ألسنة المغنين ، وآذان المستطربين ، فكان هارون الرشيد يحفظ جمهرة شعره منذ أزمان الصبا ، ويعجبه التغنى به . وصنع له

= ويسقط منهم المرثى لغوا كماء العنب فى الدبة الحوّاء

وعلّق عليه « الصبان » بقوله : « ... قال البعض ليس بنظم ، وانظر ما ضبطه وما معناه ، فانى لم أقف عليه أ هـ . لكن وجد فى بعض النسخ على وجه كونه نظما من بحر الوافر ، ولفظه :

ويسقط منهما المرثى لقوا كماء العُنْب فى الدُّبّة الحواء

بضمير التثنية فى (منهما) . وضبط (لَقْوَا) كقَرْو ، وسكون نون (العنْب) وتخفيف باء (الدُّبّة) ، وواو (الْحَواء) . وفى كثير من النسخ إسقاطه كما قدمنا فى القولة قبله » . ولا شك أن هذا الخلط الغريب يتحدث عن نفسه ، وكأن القدر قد كتب لهذا البيت الهجين النسب أن يشقى بقدر ما أشقى « المرثى » الذى قيل فى هجائه .

فيه إسحاق الموصلى نحو مائة صوت نال بها منه مئات الألوف من الدراهم ، وكان مجموع ما غنى المغنون من مقطعات شعره أكثر مما غنوا من شعر جرير والفرزدق والأخطل ثلاثتهم ، لا لأنها أجزل فى اللفظ ، وأبدع فى المعنى ، وأدخل فى صناعة الشعر من نظائرها فى شعرهم ، بل لأنها انبعثت من قلب جريح ، ووجد صحيح ، وما خرج من القلب حل فى القلب .

ديوانه : ولذى الرمة ديوان شعر مطبوع عنى بتصحيحه وتنقيحه كارليل هنرى مكارنتى . طبع فى كمبردج سنة ١٣٢٧ هـ - ١٩١٩ م ويقع فى ٦٧٦ صفحة ، وأبياته مضبوطة ضبطا كاملا ، ومشروحة شرحا وافيًا . ويقع الشرح بعقب كل بيت . وللديوان فهرس اقتصر فيه شارحه ومصححه على ذكر الأعلام التى وردت فى الكتاب .

وقد صدر الديوان بمقدمة إنجليزية تقع فى نحو أربع صفحات ، وضعها شارحه ماكارنتى .